انجازات السيد محمد بن فلاح الواسطي مؤسس امارة المشعشعيين (اتجاهاته الفكرية واسهاماته الأدبية)

أ.م.د. رسول بلاوي

جامعة خليج فارس، بوشهر –ايران)

الملخص:

العلّامة السيد محمد بن فلاح بن هبه الله الموسوى الواسطى الملقّب بالمشعشع، وُلد في واسط ونشأ فيها حتى بلغ السنة السابعة عشرة، وقرأ القرآن ومقدمات العلم، ثم طلب إليه والده أن يقرأ على الشيخ أحمد بن فهد الحلي، فانتقل مع أسرته إلى الحلّه. محمد بن فلاح الملقّب بالمهدي، رأس دولة المشعشعيين وأول سلاطينهم. تفقّه بعلوم الشيعة الأثني عشرية وغيرها، وخرج إلى بادية خوزستان. قام في سنة١٤٣٦ بنشر آراءه بين القبائل العربية، في محاولة لتشكيل تحالف من تلك القبائل الساكنة في المناطق التي تقع على الحدود الحالية بين العراق وإيران وتمكّن من التحالف معهم، وقد استولى بهم على الحويزة بين واسط والبصرة، وأصبحت مقر الحركة المشعشعية. امتد نفوذ المشعشعيين إلى مناطق واسعة شملت جنوب غرب إيران وجنوب شرق العراق وشمال شبه الجزيرة العربية، وضربت النقود باسم المشعشعين وهذا دليل على استقلال الدولة المشعشعية مع وجود قوتين كبيرتين هما الصفوية والدولة العثمانية.

كانت الأوضاع السياسية والاجتماعية في العالم الاسلامي متردّية من حيث التخلّف والفساد تحت ظل الحكومات الأجنبيّة، فأخذ محمد بن فلاح على عاتقه مهمّة القيام والثورة ضد هذه الأوضاع؛ وقد وجد في بطائح الحويزة التي لم تُبعد عن مسقط رأسه (واسط)، المكان الملائم لتأسيس إمارته والوثوب على الأجانب. حافظ المشعشعيون على استقلالهم وسيادتهم الكاملة نحو سبعين عاماً. محمد بن فلاح أديب وشاعر، ومن آثاره: ديوان شعر، والكرارية في مدح أمير المؤمنين عليه السلام. وقد جمع أسسه العقائدية في كتابه "كلام المهدي" الذى يحتوى على خطبه ورسائله. إنّنا في هذه الدراسة نحاول الكشف عن أهمّ الانجازات التي قام بها السيد محمد بن فلاح، ثم نبيّن اتجاهاته الفكرية واسهاماته الأدبية وذلك بالاعتماد على المصادر التي كتِبت في هذا المجال.

المقدمة:

لقد أسهمت مدينة واسط اسهامات كثيرة في مجالات الفكر والتاريخ والثقافة منذ وقت مبكّر من عمر الحضارة العربية. وأنجبت عشرات الفطاحل من العلماء والأدباء. وقد أسهم هؤلاء الفطاحل في بناء صرح الحضارة والثقافة العربية كما كان لهم دوراً بارزاً في الدفاع عن كرامة الأمة والوطن. وقد

تمخض عن تاريخهم العريق ظهور الدولة المشعشعية في منتصف القرن التاسع الهجري على يد السيد محمد بن فلاح المشعشعي.

بدأ المشعشعيون حكمهم في الحويزة في عام ٨٤٥هـ بزعامة السيد محمد بن فلاح وهو من عائلة معروفة وأصحاب نفوذ، وعلى عهد حكم الملك خدا بندة من سلالة تيمور جاؤوا إلى العراق وسكنوا مدينة الواسط على ضفاف نهر "الحج". قضّى السيد محمد شبابه في تلقّي العلم والمعرفة على يد أساتذته منهم الشيخ أحمد بن فهد بالحلة (شبر، ١٩٦٥هـ: ١٠٨)، الذي كان له أشد التأثير في تنمية شخصيته وصقل مواهبه (العزاوي، ١٣٥٨هـ:١٥). كانت الأوضاع السياسية والإجتماعية في أسوأ الأحوال من حيث التخلّف والفساد التي عاشها العالم الإسلامي تحت الحكومات الأجنبية. والفوضى العارمة في البلاد، تحزّ في نفسه وتهيّج فيه روح الثورة والطغيان فأخذ على عاتقه مهمة القيام ضد هذه الأوضاع. وقد استفاد محمد كل الاستفادة من فترة تواجده في الحلّة وأعدّ نفسه استعداداً تامّاً للقيام بهذا الأمر (منابي، ١٣٨٢ش: ٣٤و٣٥).

ولما أطمأن من قابليته أعلن أمره ودعوته، وصمد أمام جميع العقبات التي اعترضته في طريقه بكل قوّة وجدارة، واستطاع أن يؤسّس مملكته في الحويزة وضواحيها. في هذه الفترة عندما ضعف المغول، تمكّن السيد محمد بمساعدة بعض قبائل المنطقة من تأسيس إمارة شيعيّة سُمّيت بإمارة المشعشعين في جنوب إيران وكانت عاصمتها مدينة الحويزة. سرعان ما اتّسعت هذه الإمارة حتى شملت مناطق واسعة من أرض العراق. وكانت النقود تُضرَب باسم المشعشعين فى مديني"تستر" و "دسبول" عام ٩١٤ هـ / ١٥١٦ م. استكملت دولة المشعشعين سيادتها على محافظة خوزستان كلّها وعلى المناطق المجاورة. وكان نتاجهم الأدبي والفكري واسع قوي الصيت، جذب العديد من علماء الشيعة في سائر البلدان العربية.

وقد لُقّب السيد محمد بن فلاح بالمشعشع وهو الاسم الذي سُمّيت به الإمارة نسبة إليه، ويقال في سبب هذه التسمية: إنّه كان عندما يطالع العلوم الغريبة التي اقتبسها من أستاذه أحمد بن فهد احلي يتشعشع بدنه ويهتز طرباً. وقد تعرّض السيد جعفر الحلي إلى المشعشع وعدم تأثير النار فيه في قصيدته التي يمدح بها السيد إبراهيم آل بحر العلوم الطباطبائي (شبر،١٩٦٥: ١٣):

مشعشع الخد كم ربت عقاربه لوحته وكم سابت أفاعيه
وسحر النار في قلبي وحل بها إن المشعشع نار ليس تؤذيه

والبعض يقول سبب تسميته بالمشعشع للنور الذي يشع من وجهه، فهي صفة لجمال وجهه بحيث يبدو مشع، وهذا الرأي أيضاً يُفهم من البيت الأول للسيد جعفر الحلي.

واسط ومكانتها العلميّة:

أوّل من أسّسها الحجاج بن يوسف الثقفي عامل الخليفة عبدالملك بن مروان على العراق. وابتغى من عمله هذا أن يستحدث مقرّاً جديداً لجنوده من أهل الشام الذين تقوم بهم سلطته ويرسّخ سلطانه في هذا الموضع المنعزل الذي ينفي فيه ما قد يحدث من نزاع بينهم وبين سكان العراق، وأراد أيضاً أن يكون في بلد متساوي المسافة من كلا المصرين أي مدينتي الكوفة والبصرة؛ فاذا حدث حادث من أحدهما أسرع لاستئصاله بدون أن يعرض نفسه لخطر آخر صادر من المدينة الثانية. ولعله لهذا السبب سمى مدينته بواسط، يضاف إلى ذلك انّها كانت على المسافة ذاتها من الأهواز (رنجبر،١٣٨٢هـ،١٢٨؛ شبر، ١٩٦٥هـ:١٧).

شرع الحجاج ببناء واسط سنة ٨٣ هـ (٧٠٣ م) وفرغ منها سنة ٨٦ هـ على نهر دجلة، فهاجر إليها الكثير من الناس حتى ضاقت بأهلها ولم تزل عامرة وآهلة بالسكان في عصر «هولاكو» والذين خلّفوه من المغول وقد اجتاز بها ابن بطوطه في العقد الثالث من القرن الثامن للهجرة فوصفها بأنّها: «مدينة حسنة الأقطار كثيرة البساتين والأشجار، فيها أعلام يهدى إلى الخير شاهدهم وأهلها من خيار العراق، وفيها مدرسة عظيمة حافلة ينزلها القادمون لتعليم التجويد والقراءة» (شبر، ١٩٦٥هـ: ١٨)

تتمتّع واسط بمكانة علمية وأدبية واسعة فقد لعبت دوراً هاماً في توسيع نطاق العلم والمعرفة. وقد هاجر إليها الكثير من رجال العلم لينهلوا من معينها العذب وإليها يشير محمد المشعشعي الواسطي:

مدينتنا أرض العراق بواسط مدية أهل العلم والفضل والعمل

تخرّج منها أدباء وعلماء كبار كابن السوادي وابن أبي الصقر وابن الدهان وابن المظفر والدبيثي ومئات من أمثالهم.

حياة السيد محمد بن فلاح الواسطي:

وُلد محمد بن فلاح في مدينة واسط في العراق سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م ونشأ فيها وترعرع وتعلّم القراءة والكتابة. وقرأ القرآن، وعرف بعض مبادئ العلوم في كتاتيبها. وكان من عائلة فقيرة جدّاً لا تقوي على توفير أسباب الحياة والعيش لابنائها (الزبيدي، د.ت :٧). ولما بلغ محمد بن فلاح السابعة عشرة سنة من عمره، استأذن من أبيه فلاح وشدّ الرحال إلى مدينة الحلة ليدرس في مدرسة العلامة الشيخ أبي العباس أحمد بن فهد الحلي المتوفّى سنة ٨٤١ وهو من أكابر علماء الصوفية وعظماء مجتهدي الشيعة. قرأ السيد محمد على الشيخ أحمد بن فهد الحلي، وصرف ليله ونهاره في المطالعة والدرس فبلغ المراقي الجليلة في المدة القليلة حتى رضى عنه أستاذه، وصار يدّرس بدله عند غيابه

(المرعشي،١٣٧٥هـ، ج٢ :٢٩٧)، وكان مقرّباً محبوباً إليه منذ أن مات والده فلاح وتزوّج الشيخ أحمد بأمّه واعطاه إحدى بناته فتعهّد بتربيته والعطف عليه (شبر، ١٩٦٥هـ: ٢١).

وفي تلك الفترة كان السيد محمد يتحدّث مع بعض خواصه انّه نائب المهدي المنتظر (عج). وعندما سمع الشيخ أحمد بذلك غضب عليه ووبّخه. عكف سيد محمد في مسجد الكوفة حوالي سنة. وبعد ذلك عاد إلى واسط مسقط رأسه. وهناك أيضاً كان يتحدّث عن المهدويّة وقد وعد خواصه أنّه سوف يكتسح العالم كلّه وسوف يقسّم المدن والبلاد بين أصحابه. وعندما بلغ ذلك للشيخ أحمد أفتى بكفره وقد كتبَ لأمير واسط آنذاك أن يقتله. فهذا الأمير ألقى القبض على السيد وأراد قتله. فالسيد محمد قسم له وقال إنّني سني وصوفي، ولهذا السبب الشيعة تبغضني. فاستطاع أن يخلّص نفسه بهذا الادعاء، وبعد ذلك غادر واسط (كسروي،١٣٧٨هـ.ش :٣١).

قيام امارة المشعشعيين ونشأتها:

الصفات التي يتمتّع بها سيد محمد خلقت في نفسه طموحاً شديداً وحبّاً للزعامة والامارة. وكانت الظروف السياسية السائدة يومها قد ساهمت في إظهار دعوته واعلان امارته. فهو لم يجد في مدينة الحلة المناخ الملائم والجو المناسب لاظهار هذه الدعوة، انحدر إلى جنوب العراق واتّصل بقبائل الحويزة التي آمنت بزعامته الدينية وقيادته (الزبيدي، د.ت:٩). وبعد أن اشتدّت شوكته أخذ يغير على المناطق المتآخمة ويضمها لحكمه. وفي شهر شوال سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٠م هاجم محمد بن فلاح الكحلاء من أرض واسط وكانت قبائل هذه المنطقة حنظلة والعباد؛ يؤازرهم محمد بن شاء الله التركماني أمير واسط وكان على استعداد تام لملاقاته ولكن قبيلة حنظلة لم تثبت أمام قوّة محمد بن فلاح، فاستطاع جيشه أن يهزمهم ويغنم متاعهم وأرزاقهم. وكانت هذه الانتصارات مهمة من الناحية الاقتصادية لتمويل جيش محمد الفقير (المرعشي،١٣٧٥هـ، ج٢: ٣٩٦).

وعلى أثر هذه الانتصارات التي حقّقها محمد المشعشعي صارت القبائل العربية في تلك المناطق تتوافد عليه معلنة الطاعة والولاء ومنها قبائل بني أسد والعباد وبني سعد وبني ليث وبني حطيط وغيرهم وبذلك قويت شوكته وكثر اتباعه وأنصاره وأخذ يشن هجماته على مدن الأهواز كالدورق ودزفول، واستولى عليهما. وهكذا استطاع أن يؤسّس امارة المشعشعيين وقد جعل مدينة الحويزة عاصمة لامارته. وظل محمد بن فلاح يحكم هذه الامارة حتى توفّي سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م عن عمر ناهز السادسة والستين وقد تولّى حكم الامارة بعده عدد من أبنائه وأحفاده. وقد توسّعت الامارة في عهد أولاده وأحفاده على الرغم من أنّ هذا التوسّع كان بين مد وجزر بينها وبين حكام ايران الصفويين والافشاريين والزنديين والقاجاريين وحكام العراق العثمانيين (الزبيدي، د.ت:١٢). خلّف محمد بن فلاح خمسة بنين وهم: كريم الله، ومعتوق، وابراهيم، وعلي ومحسن.

تمكّن السيد محمد بن فلاح من توحيد الصفوف، وأنشئ جيشاً شجاعاً باسلاً لا يخاف من قوّة العدو مهما بلغت. وهو كان أوّل من أقام مدينة قمانيان في الحويزة وأخذ من الحويزة عاصمة له وجعلها مركزاً علمياً. ضم إلى سلطانه كعب وبني لام و واسط وغرب شط الحج وحتى المنتفق، نصب ابنه السيد علي في عام ٨٥٧هـ خليفة له ولكن لم يدم كثيراً السيد علي حيث قتل في أحد الحروب الداخلية (محسن، ٢٠١٠م: موقع النور).

حافظ المشعشعيون على استقلالهم وسيادتهم الكاملة نحو سبعين عام منذ السيد محمد بن فلاح المشعشع وحتى سقوط الدولة المشعشعية على يد الشاه إسماعيل الصفوي، وبعد ذلك أصبحت الأسرة المشعشعية تحكم في إطار استقلال داخلي تحت سلطة الحكم الصفوي، وهي في هذه الحالة، تخلّت عن استقلالها واكتفت بنوع من الاستقلال الداخلي.

وبعد سقوط الصفويين أيضاً استمرّت امارة المشعشعيين في خوزستان. وبعد أن قويت شوكة بني كعب في مناطق جنوبية وجنوب شرق خوزستان، ضعفت شوكة المشعشعيين وقدرتهم، حيث في زمن قدرة الشيخ خزعل الكعبي، كان المولا نصرالله نجل المولا عبدالله يرى الطريقة الوحيدة لاستمراره في الحكم التقرّب من الشيخ خزعل (قيم، ١٣٨٨ش :٩١). لقد استمر وجود المشعشعيين في الحويزة حتي أوائل الحكم البهلوي أي حتي أواسط العشرينات من القرن الميلادي المنصرم. وقد بلغ الحكم المشعشعي بأكمله ــ من استقلال واستقلال ذاتي ــ أكثر من ٣ قرون حيث أعقبتهم في الحكم على الأهواز سلالتي بني كعب والبوكاسب.

لايخفى أنّ المشعشعيين حركة اجتماعية منبثقة عن الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية السائدة وخاصة في منطقتي جنوب العراق والأهواز. بطروشفسكي الباحث الروسي الشهير يعتبر «ثورة السيد محمد ثورة في سبيل تحقيق العدالة» (نعماني، ١٣٥٨، ج١: ٤١٣).

الحركة المشعشعية كجميع الحركات الاجتماعية والسياسية التي ظهرت في عهود قبل الرأسمالية، كانت حركة دينية تبشّر جماهير العشائر والفلاحين والطبقات المضطهدة التي كانت تعاني من بطش الاقطاعيين والحكومات الظالمة، تبشّرهم بالعدالة، غير انّها وبعد جيل أو جيلين تحوّلت إلى سلالة حاكمة اقطاعية كسائر السلالات الأخري في عهد الاقطاع.

ألقاب الإمارة:

لقد وردت لهذه الأسرة الموسوية ألقاب كثيرة اطلقت أوّلاً على بعض زعمائها وأصبحت أخيراً من ألقابهم الخاصة يتميّزون بها عن غيرهم وهي:

١- آل مشعشع: نسبة إلى مؤسّسها السيد محمد بن فلاح المشعشع، فانّه أوّل من لقب بـ (المشعشع)، وأخيراً اطلق عليهم هذا اللقب جميعاً.

٢- آل فلاح: نسبة إلى فلاح ابن العلامة هبة الله وهو والد محمد (المؤسّس).

٣- الموالي: وأوّل من لُقّب بهذا اللقب هو علي بن محمد ثم استُعمل اسماً لأمارتهم إمارة الموالي أي السادة ولازال أحفادهم يتلقّبون بهذا اللقب ليومنا هذا.

٤- آل خان: نسبة إلى (علي خان) وهو أوّل من لُقّب بهذا اللقب.

وبعد ما تفرّعت هذه الطائفة وكثر نسلها أضيفت إلى ألقابهم السابقة ألقاب أخرى منها: آل حيدر، وآل سجاد وغيرهما (شبر، ١٩٦٥هـ:١٧).

عقائد وأفكار محمد بن فلاح المشعشعي:

بدأ السيد محمد بن فلاح المشعشع حياته صوفياً وصاحب رياضة ومكاشفة، وقبل خروجه اعتكف في جامع الكوفة سنة كاملة. اتّهم بعض الباحثين السيد محمد بن فلاح وابنه علي بالغلو في عقائدهم وأفكارهم. وجاءت هذه الاتهامات على لسان المغول الذين كانوا يعتبرون هذه الحركات عدواناً عليهم وخروجاً على سلطانهم. وعندما ظهرت الصفوية لم ترتض وجود دولة مستقلة إلى جوارها، فتذرع الصفويون بهذه الحجج. ومن المعاصرين الحاقدين على السادة المشعشعيين الذين أثاروا التّهم عليهم هو أحمد كسروي في كتابه (تاريخ پانصد ساله خوزستان، الجزء المسمّى: مشعشعيان مدعيان دروغين إمام زمان)؛ فكان يحرّف نص كتاب (كلام المهدي) للسيد محمد بن فلاح في اثبات آراءه. فكسروي لم ينصف المشعشعيين في بحوثه وعاملهم كأنهم محتلون للبلاد (منابي، ١٣٨٢ش: ٣٦). وقد حاول جاسم شبر أن ينتقد هذه النظريات شارحاً أسباب إطلاق مثل هذه الاتهامات؛ وبعد ذلك الباحث الأهوازي عبدالنبي قيّم قام بنقد آراء كسروي وبيّن نواياه وهفواته في البحث مستشهداً بنص كتاب (كلام المهدي).

يُعتبَر (كلام المهدي) بياناً عقائدياً وفكرياً وسياسياً لأفكار السيد محمد بن فلاح وقد لعب دوراً مهمّاً في تحريض الجماهير المسحوقة للالتحاق بالحركة المشعشعية. (رنجبر، ١٣٨٢هـ: ١٧). (كلام المهدي) هو الأثر الوحيد الذي وصلنا من مؤسّس الامارة، وقد أودع فيه أفكاره العقائدية، وقد ظهر لنا السيد محمد في مواطن كثيرة من هذا الأثر كفقية بارع يدلي برأيه في قضايا فردية وجماعية (السابق: ١٩).

كتاب (كلام المهدي) لمؤلفه محمد بن فلاح المشعشعي رغم الشوائب النحوية التي يعاني منها وعدم الانسجام في المفاهيم، يُعدّ من أهمّ المصادر العقائدية والفكرية والسياسية للمشعشعيين. علماً أنّ

هذا الكتاب لم يُنشر حتى الآن لا في إيران ولا في الخارج، ولا تُوجد منه إلّا نسختان مخطوطتان، واحدة في مكتبة آية الله المرعشي في قم وأخرى في مكتبة مجلس الشورى الإيراني في طهران.

محمد بن فلاح يُعرَف بالاعتدال العقائدي حيث اكتفي بتعريف نفسه نائباً للإمام المهدي وذلك خلافاً لنجله علي الذي حكم لمدّة ٥ سنوات وادّعى بالمهدوية والأولوهية وأغار على مرقد الإمام علي تحت شعار الرب لا يموت. وقد انتقلت أفكاره إلى شمال المملكة أي إقليم كرمانشاه، الواقع حالياً في غرب إيران وانتشرت بين الأكراد القاطنين هناك. يُوصف هؤلاء، أي المؤمنون بألوهية الإمام علي بن أبي طالب في إيران بـ "أهل الحق" و"علي اللهي"، ولهم تكايا ومراكز عبادة توصف بـ "خانقاه" ومعبد رئيسي في مدينة "صحنة" في إقليم كرمانشاه الإيراني.

يعتبر البعض أنّ السيد محمد ونجله علي من المؤسسين والمنظرين للفكرة المشعشعية القائمة على "المهدوية" ومن ثم "الألوهية" والتي تختلف مع الشيعة الإثني عشرية. ويرى التابعون لهذه الفرقة الدينية المغالية أنّ الإمام المهدي تجسّد في شخصية محمد بن فلاح "المشعشع" وأنّ الإمام علي بن أبي طالب هو الرب الذي تجسّد في شخصية نجله علي بن محمد المشعشعي في القرن الخامس عشر ميلادي.

ويجمع المؤرخون كافة انّ الحركة المشعشعية تحوّلت من الغلو إلى الاعتدال في عهد السلطان محسن بن محمد بن فلاح المشعشعي وعملت لترويج المذهب الشيعي. وقد استمرت السلالة المشعشعية في سلطتها، وتعاقب علي حكمها عدة أمراء منهم وجوه بارزة تاريخياً كالمولي مبارك بن مطلب والسيد علي خان بن خلف والسيد علي بن سيد عبد الله.

السيد محمد بن فلاح تمكّن من بسط ثورته وأسسها الفكرية على معتقدات المهدوية باعتباره نائباً للإمام. وبهذه المعتقدات استطاع أن يجمع القبائل حوله. وقد علّم أنصاره على أدعية تشتمل على اسم الإمام علي (ع) وكانوا يقومون بأعمال غريبة فيدخلون في النار أو كانوا يضربون بطونهم بالسيف فيخرج من ظهورهم دون أن يلحقهم ضرر. وقد حصل السيد محمد على كتاب «العلوم الغريبة» للشيخ أحمد بن فهد، حيث تمكّن من القيام بهذه الأمور الغريبة التي كان لها دوراً بارزاً في ضم العوام إلى أنصاره (قيم، ١٣٨٨ش: ٩٢ و٩٣).

الباحث الأهوازي عبدالنبي قيّم من خلال نقله لبعض نصوص (كلام المهدي) في صفحة ١١١، يقول أنّ السيد محمد بن فلاح لم يدعِ المهدويّة مطلقاً بل كان يعتبر نفسه نائباً ووكيلاً له في عصر الغيبة (قيم، ١٣٨٨ش: ٩٧).

ويتّضح ممّا جاء عن المشعشعيين في الكتب التي تناولت تاريخهم وسيرة حكامهم وما أوردته عن معتقداتهم الدينية وعن العلماء الذين ارتبطوا بهم وحلّوا عليهم قاصدين من بلدان شتى، وممّا لمسناه

عند أدبائهم وشعرائهم وعلمائهم، أنّ كثيراً من هذه الدعوات باطلة، وأن غالبية المشعشعيين حكاماً وعلماء جعلوا نشر المذهب الشيعي هدفهم الأساس فلذلك تكالبت عليهم الأعداء وكثر عليهم الإدعاء (منابى، ١٣٨٢ش: ٣٧). ويعتقد المؤرخون انّ الأهواز كانت البوابة الرئيسية التي دخل منها المذهب الشيعي من جنوب العراق إلى بلاد فارس حيث بذل المشعشعيون جهوداً كبيرة لترويج هذا المذهب.

الاسهامات العلمية في عهد المشعشعيين:

كان محمد بن فلاح الواسطي مؤسّس هذه الدولة عالماً متفهّماً متقناً لكثير من العلوم، كان عالماً قضى طرفاً من عمره في طلب العلم والمعرفة وحال تسلّمه حكم الاقليم واتّخاذه مدينة الحويزة عاصمة للدولة، أمر ببناء المساجد والمدارس، وجعل التعليم اجبارياً. وعيّن المعلمين للقيام بهذه المهمّة وحرص على توعية أبناء الاقليم على أسس سليمة (مطر واللامي، ١٩٨٦ :١٨؛ العاملي، د.ت، ٢٠١؛ شبر، ١٩٦٥ه: ٧٦). وجاء في كتاب "الأدب العربي في الأهواز": «وحال تمكّنه {السيد محمد بن فلاح} من السيطرة على أوضاع الأهواز السياسية ليكون أوّل سلطان من سلاطين المشعشعيين وتأسيس الحويزة عاصمة لملكه، فقد أولى الناحية العلمية العناية اللازمة واتّخذ من المساجد مكاناً لتدريس المعارف، فأسّس في كل محلة من الحويزة مسجداً وعيّن فيه قارئاً للقرآن وواعظاً يعظ الناس ويؤمّهم في الصلاة وجعل التعليم اجبارياً وعيّن المعلمين للقيام بهذه المهمة» (اللامي،١٩٨٥ : ٧١).

وقد سار على منوال رعاية العلم والأدب، الأمراء المشعشعيون كافة ونبغ منهم العلماء والأدباء والكتّاب والشعراء. وصار العلم والأدب أحد الخصال المهمّة التي يجب توفّرها في الحاكم أو القائد إلى جانب الشجاعة والفروسية والكياسة والإدارة. وقلّما نجد أحداً في تاريخ امرائهم لم يكن مجلسه مجلس علم وأدب، أو أنّه لم ينل العلماء والأدباء رعاية خاصة، فكانت المدارس والمكتبات والرحلة في طلب العلم، والإجازات العلمية أموراً ملموسة واعتيادية في مدن وقرى الاقليم أبان الحكم المشعشعي (السابق:١٨).

وفي مطلع القرن الحادي الهجري السابع عشر الميلادي، كانت الثقافة العربية بكل أبعادها، قد قطعت شوطاً مرموقاً في النضج والسمو والاتّساع. وكانت فرص نادرة لاصحاب المواهب الخلّاقة، لكي تنمو وتزدر قدراتهم وتشحذ أذهانهم. وقد شهدت هذه الفترة ظاهرة توافد العلماء من جبل عامل والعراق والبحرين وشتّى المناطق المجاورة؛ إمّا هرباً من بطش حكام الظلم والجور أو طلباً للعلم والاستفاده من المناخ العلمي الذي شهدته المنطقة آنذاك، وذاع صيته في الآفاق.

لقد ظهر لنا من خلال البحث في أحوال رجال هذه المنطقة، قلّما وجد محدّث أو فقيه أو مفسّر في الحويزة إلّا وكان له ذوق أدبي وروح شعرّية، حتى الحكّام منهم لهم دواوين شعرّية وكتب علميّة لا

تزال موجودة في المكتبات، وما كتبه المؤرخون الحويزيون أيضاً يشهد على ذلك ويصوّر لنا مجتمعاً تسوده الروّح العلميّة.

ومن مظاهر الحركة الثقافية والنهوض الفكري في هذه الفترة، وجود المكتبات الزاخرة بالكتب النفيسة والمؤلفات القيّمة في الفنون المختلفة. فأنشاء دور الكتب والمكتبات والخزائن في الحويزة والدورق وتستر أيضاً قد حظي باهتمام الحكّام والفضلاء.

يعلّل السيد هادي باليل الموسوي هذه الحركة العلميّة والنهوض الفكري في الاقليم قائلاً: «نتيجة لحضور العلماء وسكناهم في الحويزة، فقد ألفت فيها الكتب والأسفار ونقلت إليها مخطوطات قيمة من شتى أنحاء المعمورة واستنسخت فيها نسخ جليلة ونادرة وتأسّست فيها مكتبات عامة تضم كتبًا في أنواع العلوم المتداولة آنذاك» (باليل الموسوي، ١٤١٢ه: ١٧٨).

وقد أبدع القائمون على هذه المكتبات، نظماً وتعليمات في سبيل المطالعة والاستعارة والحفظ وكل ما يتعلّق باستعمال الكتب وحسن الاستفادة منها. وعدوا إعارة الكتب من المستحبات استحباباً مؤكّداً لما فيه من الإعانة على انتشار العلم وتثقيف المجتمع. ومن آداب الاستعارة عندهم عدم التصرّف بالكتاب المستعار أو المستأجر بغير إذن صاحبه (منابي، ١٣٨٢ش: ٤٩و٥٠). وبشأن وضعها في الخزائن فإنّها كانت توضع على أساس علومها وشرفها وشرف مصنّفها فيوضع الأشراف على الكل ثم يراعي التدرج فإن كان فيها المصحف الشريف جعل أعلى الكل ثم كتب الحديث ثم تفسير القرآن الكريم ثم تفسير الحديث الشريف ثم أصول الفقه ولا يوضع الكبير فوق الصغير لئلا يكثر تساقطها (الجزائري، لا.ت، ج٣: ٣٧٢).

الاسهامات الأدبية في عهد المشعشعيين

تتزامن هذه الفترة في تاريخ الأدب العربي مع عصر الانحطاط الذي بدأ بسقوط بغداد عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وانتهاء الحكم العباسي على يد التتر، ومن ثم الأتراك العثمانيين. وأبرز أسباب الانحطاط الأدبي في هذه الفترة تعود إلى هيمنة الأجانب وبُعدهم عن فهم الأدب العربي، وإهمالهم لمختلف أمور المجتمع عدا ما يصب في صالحهم. لكن في ظل الامارة المشعشعية كان الأمر مختلفاً، فالهوية العربية لحكّام هذا الإقليم تقع في مقدّمة أسباب النهوض الثقافي والأدبي. فقد انتعشت الحياة الأدبية وكان وقوف الأدباء أمام سلاطين وأمراء المنطقة لإلقاء قصائدهم وخطبهم أمراً مألوفا. فكان المشعشعيون «دولة عربية مستقلة غير خاضعة لأي حكم أجنبي، وقد أولت الثقافة العربية والأدب رعاية خاصة نظير ما كان يحصل في عصور ازدهار الحضارة العربية» (اللامي،١٩٨٥: ٨٨).

انتعشت الحركة الأدبية في المناطق الخاضعة لسيطرة المشعشعيين وظهرت بوادر هذا الانتعاش في السنين الأولى من عمر هذه الدولة التي تأسّست في منتصف القرن التاسع الهجري/ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي. وسارت جنباً إلى جنب مع حركة النهوض الفكري والثقافي الذي رعته الدولة.

كانت الحويزة من مراكز الأدب الشيعي في العالم الاسلامي في تلك الفترة ومن أجل هذا فقد ظهر فيها الشاعر الشهير السيد ابن معتوق الحويزي في القرن الحادى عشر؛ وقد امتاز هذا المركز بالعطاء الأدبي الفيّاض والابداع الجميل، والفضل في ذلك كله يعود للامارة المشعشعية التي احتضنت الأدب في هذا الاقليم.

وقد كان علماء هذه المنطقة يمتازون بصبغتهم الأدبيّة على سواهم بالإضافة إلى تخصّصهم في سائر الفنون العلمية، وذلك لأنّ الأمراء فيها من صميم العرب يتذوّقون الشعر والأدب ويعملون على نشره ورفع مستواه، وكان العلماء والأدباء والشعراء يؤلفون لهم الكتب ويصدّرونها بأسمائهم وينظمون القصائد في مدحهم لما يجدونه فيهم من ميل ورغبة في العلم والأدب، حتى انّك لتجد الحاكم منهم ينفرج ويأمر بالصّلات السنيّة من أجل بيتين من الشعر يقعان موقع القبول منه. وقد ألّف الشيخ عبد علي بن رحمة الحويزى تلميذ الشيخ البهائي رسالة في علم العروض سمّاها (المشعشعة في العروض) وصدّرها باسم المولى السيّد خلف بن عبد المطّلب المشعشعي الحويزي وأهداها إليه. وهذا يدلّ على رواج الأدب في هذه الامارة، ذلك الأدب الذي بنى على حبّ أهل البيت وولائهم فتبلور وظهر ذلك الحب في شعرهم وانتاجهم الأدبي.

وفي سنة ٩٧٠ هـ أصبح السيد عبد المطلب بن حيدر المشعشعي والياً على الدورق، وكان عالماً فاضلاً جليل القدر فقصده العلماء والأدباء ولجأ إليه المطاردون من قبل حكّام الظلم والجور. ومن جملة اللاجئين إليه الشيخ علي بن أحمد ابن أبي جامع العاملي، فإنه فرّ بأهله وعياله من بلاده جبل عامل بعد مقتل الشهيد الثاني رحمه الله خوفاً من الظالمين، فأقام بكربلاء مدّة فوشي به، فأمر السلطان العثماني بالقبض عليه، لكن الشيخ خرج بأهله وعياله إلى بلاد إيران، وحينما وصل الدورق رحّب به المولى عبد المطلب والي البلد وأحسن وفادته وأكرمه، وحسن له الإقامة في الدورق والإفادة والتدريس وخلاصة العلم ونشر مذهب أهل البيت عليهم السلام، فقبل الشيخ وقام هو مع بقية أهل العلم وبمساندة الوالي بالارشاد والتدريس، فكان حصيلة ذلك تخرّج نخبة صالحة من العلماء والأدباء على أيديهم، أحدهم العلامة الجليل المولى خلف بن والي الدورق، صاحب التأليفات النفيسة في الحديث والأدب والمنطق وسائر الفنون العلميّة. وأخذ العلماء والأدباء يتوافدون على الدورق فيحظون بالترحيب والاكرام من قبل الولاة ممّا يحبّب لهم السكنى فيها، حتى أصبح البلد حافلاً بالعلماء والأدباء والشعراء،

وظهر الانتاج العلمي والأدبي، وكثرت التصانيف، وازداد عدد المجالس العلمية والأدبية من بداية القرن الحادي عشر فما بعد، وقد ظهرت في تلك الفترة شخصيات أدبية كثيرة، كما عرفت عترة بيوتات بالعلم والفضيلة من السادة المشعشعيين، ومن غيرهم من العلويين والطريحيين والكعبيين، وغيرهم (باليل الموسوي، ١٤١٢هـ: ١٨٣).

وقد برزت أسماء لامعة لعلماء ومفكرين قدّموا الكثير في سبيل النهوض بالأدب والثقافة في عصرهم، منهم السيد شهاب الدين الموسوي والعلامة نعمة الله الجزائري. فلهؤلاء الأدباء المشعشعيين فضل على الأدب العربى لإبداعهم أوزاناً شعريّة جديدة لم يسبقهم فيها أحد من أدباء العرب، ومن تلك الأوزان البند الذّي وُلِد ونشأ في الحويزة ومنها انتشر إلى الأقطار العربيّة الأخرى كالعراق والبحرين والحجاز وغيرها. وكان الشعر في غالبيته يتّسم بالطابع الديني وذلك لشدّة التزام الحكّام والإمراء بالاتّجاه الديني وولاءهم لأهل بيت النبوة والرسالة (عليهم السلام). لقد اتّجه الشعر الديني إلى تمجيد الباري سبحانه وتعالى والثناء عليه بما هو أهله، وطلب العفو والغفران وصلاح الدنيا وحسن المآب في الآخرة وذكر نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى. أمّا الرسول الكريم (ص)، فقد ذهب الشعر إلى الإطراء على شمائله وفضائله ومزاياه ونسبه وكرمه وشجاعته وفصاحته وبلاغته وسيرته ومعجزاته وشفاعته ومقامه عند ربه. ويأتي بعد الرسول مديح أهل بيته وعلى رأسهم ابن عمه وصهره أمير المؤمنين علي أبن أبي طالب وبنته فاطمه الزهراء والحسين الشهيد المثال الأعلى للتضحية والجهاد والقدوة المثلى للمظلومين المضطهدين والثائرين على الجور والطغيان والأئمة الأطهار (ع) أعلام الهدى وسبيل النجاة. وفور استقرار حكم المشعشعيين واستكمال مستلزماته وبعد أن قويت شوكتهم أخذوا في نشر المذهب الشيعي واستخدموا الأدب خير استخدام لهذا الغرض. فاتّخذ الأدباء على عاتقهم مهمة الذود عن حياض المذهب الشيعي والدفاع عن مرتكزاته الأساسية و قد امتاز عهدهم بالعطاء الأدبي الفياض والإبداع الجميل الذي كانت تغلب عليه النزعة السياسية (منابي، ١٣٨٢ش: ٨٤و٨٥).

الخاتمة:

- شهد القرن التاسع الهجري ومنتصف القرن الخامس عشر الميلادي تأسيس امارة المشعشعيين. وقد لعبت هذه الامارة دوراً كبيراً في المنطقة.

- لقد وجد السيد محمد بن فلاح في بطائح الحويزة المكان الملائم لتأسيس إمارته والوثوب على الأجانب، وذلك لبُعد هذه المدينة عن عاصمة الحكم بغداد كما إنّه وجد فيها أناس تحمّسوا لفكرته وهبّوا لنصرته.

- محمد بن فلاح يُعرَف بالاعتدال العقائدي حيث اكتفي بتعريف نفسه نائباً للإمام المهدي وذلك خلافاً لنجله علي الذي ادّعى بالمهدوية والأولوهية.

- يُعتبَر كتاب (كلام المهدي) بياناً عقائدياً وفكرياً وسياسياً لأفكار السيد محمد بن فلاح وقد لعب دوراً مهمّاً في تحريض الجماهير المسحوقة للالتحاق بالحركة المشعشعية.

- كان السيد محمد عالماً متقناً لكثير من العلوم وقد قضى طرفاً من عمره في طلب العلم والمعرفة وحال تسلّمه حكم الاقليم واتّخاذه مدينة الحويزة عاصمة للدولة، أمر ببناء المساجد والمدارس، وجعل التعليم اجبارياً. وقد سار على منوال رعاية العلم والأدب، الأمراء المشعشعيون كافة ونبغ منهم العلماء والأدباء والكتّاب والشعراء.

- ظهر في ظل الامارة المشعشعية علماء وأدباء ساهموا في النهوض بالأدب والثقافة العربية آنذاك، منهم السيد شهاب الدين الموسوي والعلامة نعمة الله الجزائري. وقد أبدع الأدباء المشعشعيين أوزاناً شعريّة جديدة لم يسبقهم فيها أحد من أدباء العرب، ومن تلك الأوزان البند.

- حافظ المشعشعيون على استقلالهم وسيادتهم الكاملة نحو ٧٠ عام، وبعد ذلك أصبحت الأسرة المشعشعية تحكم في إطار استقلال داخلي تحت سلطة الحكم الصفوي. وبعد أن قويت شوكة بني كعب في مناطق جنوبية وجنوب شرق خوزستان، ضعفت شوكة المشعشعيين وقدرتهم.

المصادر والمراجع:

- باليل الموسوي، سيدهادي (١٤١٢ه): « تاريخ الأدب الشيعي في الحويزة و الدورق»، مجلة تارثنا، العدد الأول (٢٦)، السنة السابعة، محرم ١٤١٢هـ، صص ١٧٧-١٨٩.
- الجزائري، نعمة الله (لا.ت): الأنوار النعمانية، منشورات جاب، تبريز.
- رنجبر، محمدعلي (١٣٨٢هـ.ش): مشعشعيان؛ ماهيت فكرى-اجتماعى وفرايند تحولات تاريخى، طهران، منشورات آگاه.
الزبيدي، محمد حسين (د.ت): امارة المشعشعيين، مركز دراسات عيلام.
- شبر، جاسم (١٩٦٥هـ): تاريخ المشعشعين وتراجم أعلامهم، مطبعة الآداب، النجف الأشراف.
- العاملي، سيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ط١، مطبعة العرفان صيدا.
- العزاوي، عباس (١٣٥٨هـ): تاريخ العراق بين الاحتلالين، ٨مجلدات، المطبعة الأهلية، بغداد.
- قيّم، عبدالنبي (١٣٨٨ش): پانصد سال تاريخ خوزستان ونقد كتاب "تاريخ پانصد ساله خوزستان" أحمد كسروي، طهران، منشورات اختران.
- كسروى، أحمد (١٣٧٨هـ.ش): مشعشعيان (مدعيان دروغين امام زمان)، طهران، منشورات فردوس.
- اللامي، عبدالرحمن كريم (١٩٨٥): الأدب العربي في الأهواز، منشورات وزارة الثقافة والاعلام.
- المحسن، سجاد (٢٠١٠م): « ملف النور للادب الشعبي -٢ / امارتي المشعشعية الجزء الاول»، منشور في موقع النور، على الرابط التالي:
http://www.alnoor.se/article.asp?id=75836
- المرعشي، نورالله بن شريف الدين الحسيني (١٣٧٥هـ): مجالس المؤمنين، جزآن، طهران، اسلامية.
- مطر، جبر فاخر وعبدالرحمن كريم اللامي (١٩٨٦): أديب من الأهواز ابن رحمة الحويزي، منشورات مركز دراسات الخليج بجامعة البصرة.
- منابي، علي (١٣٨٢ش): علي بن خلف بن عبدالملطلب الموسوي المشعشعي الحويزي حياته وأدبه، رسالة ماجستير، الجامعة الأهليّة، عبادان.
- نعماني، فرهاد (١٣٥٨ش): تكامل فئوداليسم در ايران، طهران، منشورات الخوارزمي.